مقدمة

بعض المهن تضع صاحبها فى تعامل مستمر مع النساء، وتقدمه فى مهنته دليل على أنه أدرك جانبًا من طباع المرأة يساعده فى التعامل معها فيما يختص بمهنته، فإذا جئنا إلى مهنة طبيب أمراض النساء نرى أنه لابد أن يعود بكل ما تعرضه عليه المرأة إلى خلفية عريضة من تاريخ حياتها الأسرية والعاطفية والمهنية والصحية، وما يتشابك مع كل هذا من أمور نفسية، كل هذا محمول على عدة صفات تميزت بها الأنثى كجنس شكلت كيفية تعاملها مع جنس آخر تحس بمدى حاجته إليها فى هذا العالم الذى يسيطر عليه، وتدرك أبعاد حاجتها إليه لتجد لها مكانا فى عالمه.

والموقع الذى يقف فيه طبيب أمراض النساء يختلف كثيرا عن موقع أى رجل قضى حياته فى تعامل مع عدد محدود من النساء بين أم وقريبات، وأخت وزميلات، وزوجة وحبيبات، فإنه من الناحية العلمية لكى تسجل صفة معينة فى مجموعة من الناس يجب أن تتكرر هذه الصفة فى أعداد كبيرة منهم، وأن تبنى عليها نتائج تختبر فى تطبيق معالجة معينة فتنجح بنسبة كبيرة، أو تتوقع نتائج معينة فتقع، ولا أستطيع الزعم بأن كل ما جاء فى هذا

الكتاب ينطبق عليه هذا الوصف العلمى، فإن بعضا منه يعكس وجهة نظر وشعورا باتجاه معين.

وكثير مما جاء فى هذا الكتاب يسجل للمرأة على المستوى العام كأنثى لها صفاتها المميزة التى لا تختلف مهما تباينت فى أى موقع فى العالم وبعضها يسجل لها على المستوى المحلى من حيث درجة التطور الاجتماعى والتعليم والمستوى الاقتصادى الذى يمر به مجتمعنا. كل هذا فى ظل خلفيته التاريخية الضاربة فى القدم، وأستطيع أن أتخيل أن قارئا لهذا الكتاب بعد مائة عام لابد أن يبتسم ويشعر بالإثارة عندما يقرأ عما كانت تعانيه المرأة المصرية فى القرن العشرين، وهى حقبة أتيح فيها بصفة عامة للمرأة فى الدول المسماة بالنامية أن تطلع – نتيجة لكثرة وتنوع الاتصالات – على مظاهر تميزت بها المرأة فى الدول التى تقود العالم فى المرحلة الحالية، واستتبع ذلك زحزحة قيم وأوضاع راسخة لتفسح مكانا لقيم وأوضاع جديدة متغيرة ومختلطة المعالم، مع ما يولده هذا من اضطراب فى الأسرة.

وأنا أقدم هذا الكتاب مدركا لما يحمله من إثارة للقارئ أيا كان موقعه راجيا أن يشترك معى أكبر عدد من الناس فى التأمل، والكشف عن مكنون بعض النفوس، أو عرض تصرف معين يستوجب النقد، أو وضع اجتماعى يستدعى التقويم.

وبالطبع زخرت سنوات ممارستى لمهنتى والتى امتدت لأكثر من أربعين عاما بقصص ومواقف عديدة ذات مدلول يستحق المناقشة

وعرض لى الكثير من الشخصيات النسائية وأمكن تسجيلها، فجاء هذا الكتاب معبرا عمّا أتصوره له من اكتمال فى الحدود التى مَنَحتْنيها مهنتى مع ما كان يضطرم داخلى من ميول أدبية حرمنى من ممارستها مهنيا رغبة الأهل الشديدة فى أن أدرس الطب.

وأستميح القارئ عذرا فى القول بأن بعض الجمل الواردة فى هذا الكتاب قد تستلزم استعادة القراءة والتفكير فيما خلفها، وقد ألجأنى إلى هذا الأسلوب أحيانا أنى مضطر إلى أن أناقش بعض الموضوعات التى تسمى مكشوفة، ولكنى مُصر فى ذات الوقت أن يدخل هذا الكتاب فى كل البيوت، وأن يكون فى متناول جميع أفراد الأسرة دون حرج ودون أن يغلق القارئ الكتاب ويدسه تحت الوسادة إذا دخل عليه آخر، وذلك حتى أطمئن إلى بلوغ الهدف الذى من أجله وضعت هذا الكتاب مُؤَمِّلاً خيرا للفرد والمجتمع قبل أن أكون مجرد مسجل لبعض ما يجرى داخل عيادة طبيب أمراض نساء ويرغب الناس فى معرفته بشدة وإثارة.

والذين كتبوا عن المرأة حتى الآن اختلفت مواقعهم وتباين مستلهمهم، ولكن أوقعهم أثرا فينا هو المحب الولهان فرفعها إلى عنان السماء، أو الكاره المقهور فنزل بها أسفل سافلين، وعندما كتبت المرأة عن نفسها عبرت عن ثورة كامنة ضد تحكم الرجل، مما أثر على عامل الموضوعية فى العرض، ومن ناحية أخرى لابد من الاعتراف بأن وضع تصرفات المرأة تحت الفحص العلمى الصارم يعد

من أصعب الأمـور لتشابك العوامل المرتبطة بالأنوثة ووضع المرأة الاجتماعى.

وأنا لا أكاد أتبين موضع ما يمكن أن أقدمه بين كل هذا، ولكنى منذ فترة شعرت بأن لدى ما أود أن أقوله عن المرأة من موقعى، خاصة بعد أن قضيت سنين طويلة فى العمل الميدانى لتنظيم الأسرة حيث الاحتكاك مباشر بالجماهير، وحيث تطرح وتتبادل معلومات السلوك الجنسى ذى الأهمية القصوى بكل صراحة، ولابد لى أن أعترف بأن الكثير مما سجلته فى هذا الكتاب تعلمته من موقعى فى تنظيم الأسرة، ولابد أن أعترف أيضا بأنى كنت أحاول أن أسبر غور الخلفية الاجتماعية والنفسية لمرضاى فكانوا يرحبون بذلك، عندما وجدوا من هو على استعداد لأن يطلع إلى السطح بما كان متربصا فى نفوسهم من تساؤلات مكبوتة لسنوات، وأن يناقشه، فأمكن مساعدتهم إلى حد كبير.

ولا يهم بعد ذلك أن يكون ما سجلته عن المرأة لها أو عليها، إنما هو لوجه الحقيقة كما رأيتها.

والله ولى التوفيق

دكتور
حافظ على يوسف مجاهد
دكتوراة فى أمراض النساء
استشارى أمراض النساء